ابن رشد في أدبه

للدكتور عبد الكريم خليفة

مقدمة

تهدف هذه الدراسة الى القاء الضوء على جانب مهمّ من جوانب انتاج عَلَمٍ من اعلام الفكر في حضارتنا العربية الاسلامية ، وهذا الجانب يتمثل في « ادب » ابن رشد ، وهو واحد من اشهر الكتّاب ومن اكثرهم خصبا وانتاجا .

وان هذه الدراسة شائكة في نظرنا ، وذلك لصعوبة الفصل بين مجال الفكر والفلسفة من ناحية، والأدب من ناحية اخرى . فان مفاهيم الأدب وتعريفاته تتعدد وتختلف باختلاف الاتجاهات الفكرية والثقافية والاجتماعية عند الباحثين . وربما كان اهمّ من ذلك كلّه ان نصل الى مفهوم الأدب عند الكاتب ذاته . ليس من السهل ان تحدد مفهوم الأدب عند ابن رشد ، دون النظر في فلسفته وفي مفهوم الأدب عند معلمه الأول « ارسطو » .

اليس من الخطأ ان تعتبر مفهوما واحدا للأدب ، تحاول إقحامه على جميع انشطة الفكر الانساني ؟ ... الا تتداخل مفاهيم الأدب هذه بألوانه ومذاهبه ؟ ..

لا شكّ ان هنالك فرقاً كبيراً بين أدبٍ واقعيّ تحتل فيه جدّيّة الفكر مكانة ممتازة ، وأدبٍ لاهٍ يُضفي عليه الأديب رونق النكتة والظرف .

فقد كان ابن رشد جادّاً ، وكانت الدراية اغلب عليه من الرواية . وبلغت جِدّيّته الى الحد الذي عبّر عنه صاحب كتاب التكملة بقوله : « ... وعُنِيَ بالعلم من صغره الى كبره، حتى حُكيَ عنه انه لم يدع النظر ولا القراءة منذُ عَقِلَ الا ليلة وفاة ابيه ، وليلة بنائه على اهله ... وانه سَوَّدَ في ما صنّف وقيّد وألّف وهذّب واختصر نحواً من عشرة آلاف ورقة . ومال الى علوم الأوائل، فكانت له فيها الامامة دون اهل

مصره » (١) .ونحن لا يهمّنا في هـذا المجال مدى دقة هذه الروايـة ، ولكنّ ما توحي بـه من نظرة ابن رشد الجادّة الـى الحياة وتحكيمه العقل ، وذلـك بغلبة الدراية عنده على الروايـة ...

فاذا نظرنا مثـلا الى المساجلة الفكرية باعتبارها احـد الفنون الادبية الراقية ، الا يحقُّ لنـا ان نُصنِّفَ في اطارها تلـك المساجلة التي دارت بين ابن رشـد والغزالي ؟ فقد وصفها العقـاد بقوله : « فلـم يحفظ لنـا تاريخ الفكر مساجلة بين حكيمين في قـوة المساجلة التي دارت بـين ابن رشـد والغزالي،ومضاء سلاحها،ونفـاذ حججها وبراهينهـا ... » (٢) .

وهنـا يشير الكاتب في الواقع الـى معركتين فكريتين مـا زال اثرهما العميق في التفكير الفلسفي الاسلامي . فقد اثـار الأولى الغزالي في كتابه : « تهافـت الفلاسفة » واثـار الثانية ابن رشـد بكتابه : « تهافـت التهافـت » .

وبالرغم من أن ابن رشـد قد ذاع صيته لـدى الافرنج في مجالين اساسيين من المعرفـة ، هما الطبّ والفلسفة ، فـانّ جوانبه الفكريّة والثقافية الأخرى لـم تكن اقل إشراقا ؛ فهو على حـد تعبير بعض الروايات ، كمـا سنرى فيما بعد : « كـان يُفْزَع الى فتواه في الطـبّ كما يُفزَع الى فتواه في الفقه ، مع الحظ الوافر من الاعراب والآداب » (٣) .

وإنّ الدارس للحركة العلميـة في ذلك العصر ، لا يَعجَب من هـذا كله،فقد عاش ابن رشـد في بيئة علمية عاليـة جمعت مشاهير عصره ، يعينه في ذلك طبـعٌ مؤاتٍ واستعداد فطريّ أصيـل .

امّـا في مجال الحركة العلمية فـي الأندلس ، ورغبةِ اهلهـا في العلم ، فنحن نستذكر مـا اورده المقّري ، اذ قال : « وامّـا حال اهل

---

(١) التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .
(٢) العقـاد ، ص ٥٥ .
(٣) فـرح ، ص ٢٧ .

الاندلس في فنون العلـــم ، فتحقيق الانصاف في شانهم في هـــذا الباب ، انهم أحرص النـــاس على التميّز : فالجاهل الذي لم يوفّقه اللـــه للعلم يجهد أن يتميّز بصنعـــه ، ويربأ بنفسه ان يُرى فارغـــا عالة على الناس ، لأن هـــذا عندهم في غاية القبح،والعالـــم عندهم معظَّمٌ من الخاصـــة والعامة ... فالعالم منهـــم بارع ، لانه يطلب ذلك العلـــم بباعث من نفسه ، يحمله علـــى ان يترك الشغل الذي يستفيد منـــه ، وينفق ما عنده حتى يعلـــم . وكلّ العلوم لها عندهم حـــظّ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم ، فان لهمـــا حظّاً عظيما عند خواصّهم ، ولا يُتظاهَر بهـــا خوف العامة . فانّه كلّمـــا قيل « فلان يقرأ الفلسفة » او « يشتغـــل بالتنجيم » اطلقت عليه اســـم زنديق ، وقيّدَت عليه انفاسه . فـــان زلّ في شبهة رجموه بالحجارة او حرقوه قبـــل ان يصل امره للسلطان ، او يقتلـــه السلطان تقرّباً لقلوب العامـــة.وكثيرا ما يأمر ملوكهم باحراق كتـــب هذا الشان اذا وجـــدت ... » (٤) .

إنّ ظاهرة التضييق علـــى حرية الفكر ، التي اشـــار اليها المقّري ، قد اصابت بلهيبها ابن رشـــد ذاته في محنته التي حلّت بـــه في أخريات عمره ؛ وإنَّ هـــذه الظاهرة لم تكن في الحقيقة لتقتصر علـــى الاندلس ، بل امتدّت من مشرق دار الاســـلام الى مغربه الاقصى ، وذلـــك في فترات معيّنـــة .

ولـــو القينا نظرة علـــى احداث الفترة الزمنية التي لقي بها ابـــن رشد محنته ، لوجدنا امثلـــة كثيرة في هراة وواسط ودمشق وبغداد (٥) .

اسمه ونسبـــه وكنيته :

هو محمـــد بن أبي القاسم احمـــد ابن أبي الوليد محمـــد بن احمد بن رشد ، يكنى أبـــا الوليد . وهو حفيد قاضـــي الجماعة بقرطبة . (٦) .

---

(٤) النفـــح ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .
(٥) انظـــر العبـــر ، ج ٤ ، ص ٢٨٥ .
(٦) النباهي ، ص ١١١ . انظـــر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٠ ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ. ١١٢٦ م. وادرك من حياة جَدّه شهرا سنة عشرين (٧) . وقد اشتهر في اوروبا في القرون الوسطى باسم AVEROES (٨) .

نشأ ابن رشد في بيت علم وفضل ، وكان ابوه أحمد بن محمد بن احمد بن رشد ابو القاسم ، قد تولّى القضاء (٩) . وتتحدّث المصادر من نشأة ابي القاسم هذا ، فتقول : « إنه من اهل بيت فقه وعلم » (١٠). وربما ساهمت شهرة ابن رشد الحفيد وابن رشد الجَدّ ، في قلّة المعلومات التي وصلتنا عن ابي القاسم . وتوفي والد ابن رشد سنة ٥٦٣ هـ. (١١) . وهذا يعني ان الاديب الفيلسوف ابن رشد ، قد ذاعت شهرته العلمية في حياة والده .

اما جَدُّه محمد بن احمد بن رشد (١٢) فيُروَى ان اصله من بلدة مرقسطة (١٣) . وكان قاضي الجماعة بقرطبة ، وصاحِبَ الصلاة بالمسجد الجامع بها ، يكنى ابا الوليد ... وكان قطبها ، عالما حافظا للفقه ، مقدّمًا فيه على جميع اهل عصره ، عارفًا بالفتوى على مذهب مالك واصحابه ، بصيرًا باقوالهم واتّفاقهم واختلافهم ، نافذا في علم الفرائض والاصول ، من اهل الرياسة في العلم والبراعة والفهم مع الدين والفضل والوقار والحلم والسمت ، والهدي الصالح .

ويستمرّ صاحب كتاب الصلة فيقول :"سمعت الفقيه ابا مروان عبد الملك بن مسرة صاحبنا اكرمه الله ، ومكانه من العلم والفضل والثقة مكانه ، يقول : شاهدت شيخنا القاضي ابا الوليد رحمه الله يصوم يوم الجمعة دائما في الحضر والسفر" (١٤) .

---

(٧) العبر ، ج ٤ ، ص ٢٨٧ ، شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٢٠ .

(٨) Encyclo . Vol. II , P. 410 - 413

(٩) المصدر نفسه .

(١٠) بغية الملتمس ، ص ١٥٦ .

(١١) المصدر نفسه .

(١٢) النباهي ، ص ٩٨ .

(١٣) الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ ، من هامش الاصل ، قال عمر بن دحية : اصله من بلدة مرقسطة .

(١٤) الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ : النباهي ، ص ٩٨ .

ولـــد ابو الوليد ابن رشد (الجـــد) في شوال سنة ٤٥٠ هـ. (١٥) . وقد روى عن ابـــي جعفر احمد بن رزق الفقيه ، وعـــن ابي مروان ابن سراج ، وابي عبد اللـــه بن خيرة ، وابي عبد اللـــه محمد بن فرج ، وابي علـــي الغساني ، واجاز لـــه ابو العباس العذري ما رواه (١٦) .

وتقلّد ابـــو الوليد القضاء بقرطبة ، وسار فيه على حـــدّ تعبير الروايـــة بأحسن سيرة واقوم طريقة ، ثـــم استعفى عنه فاعفـــى ؛ ونشر كتبـــه وتواليفه ومسائله وتصانيفه (١٧) . ومـــن تواليفه كتاب المقدمـــات الاوائـــل كتب المدوَّنـــة ، وكتاب البيان والتحصيل لمـــا في المستخرجة من التوجيـــه والتعليل ، واختصار المبسوطـــة ، واختصار مشكل الآثـــار للطحاوي الى غير ذلك من تواليفه . ويعقّـــب على ذلك صاحب كتاب الصلـــة بقوله : « سمعنا عليـــه بعضها ، واجاز لنـــا سائرهـــا » (١٨) .

ومن مؤلفاته ايضـــا ، « الفتاوى » (١٩) . فقد جمـــع ابن الفرضي شيخ الجامع الكبير فـــي قرطبة فتاوى ابي الوليد ابـــن رشد (الجدّ) ، في كتاب خَطّـــي (٢٠) . ولا شك ان هذه المكانـــة العلمية الرفيعة التي كان يشغلها الجـــد ، قد كان لها آثارهـــا العميقة وملوابسها الواضحة في شخصية ابـــن رشد (الحفيد) وتكوينه العلمـــيّ والثقافيّ . وتوفي ابو الوليد ابن رشد (الجـــدّ) ، ليلة الاحد ، ودفـــن عشي يوم الاحد الحادي عشر مـــن ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائـــة ، ودفن بمقبرة العباس ، وصلّى عليه ابنه ابـــو القاسم ، وشهده جمـــع عظيم من الناس ؛ وكـــان الثناء عليه حسنا جميلا (٢١) . وهكذا فقد ولـــد ابو

---

(١٥) الصلـــة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .
(١٦) المصـــدر نفســـه .
(١٧) النباهـــي ، ص ٩٩ ، الصلـــة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .
(١٨) الصلـــة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .
(١٩) الاعـــلام ، ج ٦ ، ص ٢١٠ .
(٢٠) يوجد هـــذا المخطوط ، على حـــد رواية الجامعة / فرح انطون ، ص ٨ في مكتبة باريس وقد نقـــل اليها من دير سان فيكتور فـــي اسبانيا .
(٢١) الصلـــة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .

الوليد ابن رشـــد (الحفيد) سنة ٥٢٠ هـ. بقرطبة ونشـــأ فيها ، في بيت علـــم وفضل، ممّا كان له اكبر الأثر في تكوينـــه الفكري والثقافي .

مجريـــات حياتـــه :

ولـــد ابن رشد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ. ، ونشأ فيهـــا حيث درس الفقه والطبّ وعلـــوم الأوائل ، وتتلمذ على مشاهير علمائهـــا ... وفي سنة ٥٤٨ هـ. نـــراه في مراكش ، حاضرة الدولـــة الموحّديّة التي بسطت سلطانها علـــى الاندلس والمغرب . وربما كان ابـــن طُفيل ، المفكّـــر المشهور ، وطبيب البـــلاط الموحّدي، هو الذي اشـــار عليه بالقدوم الى عدوة المغرب ؛ اذ قـــام ابن طُفيل بتقديم « ابن رشـــد » الشاب الى ابي يعقوب يوســـف سلطان الموحّدين ؛ وتروي لنـــا المصادر قصّة هذه المقابلة التي كـــان من نتائجها حثّ ابن رشـــد بوضع شروحٍ مُيَسَّرة لأرسطـــو ... (٢٢) .

وتعاقبت الأحداث في حياة ابن رشـــد ... ففي سنـــة ٥٦٥ هـ. تولّى القضاء باشبيلية ، وبعـــد ذلك بسنتين اصبح قاضي قرطبـــة . وبالرغم من مشاغله الكثيرة ، فقـــد ألّف أهمّ كتبه في هـــذه الفترة ..

وفي سنة ٥٧٨ هـ. استدعاه يعقـــوب المنصور، الذي خلف أبـــاه يوسف، لكي يصبح طبيبـــه بمراكش ، فقد تقدمت السن كثيرا بابن طفيل . ولـــم يلبث ابن رشد طويلا في البـــلاط الموحّدي ، اذ نـــراه بعد فترة قصيرة يعود الـــى قرطبة ، لكي يشغل فيها منصـــب قاضي القضاة .

كان ابن رشـــد ذا حظوة عند خليفة الموحّدين ، يعقـــوب المنصور، في بداية الامر، ثـــم مالبث ان نقم عليه ، بعـــد ان اتّهم بالزندقة . فأمر الخليفة باحراق كتـــب الفلسفة ، ما عدا كتب الطـــبّ والحساب ، وفرض على ابن رشـــد ان يقيم في « اليسانة » وهي بلـــد قريب من قرطبة ، كانت اولا لليهود ، وان لا يخـــرج عنها (٢٣) . وقد نقم السلطان ايضـــا

---

(٢٢) انظر : Encyclo . Vol. II , P. 410 - 413

(٢٣) انظر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٢ .

على جماعة أخرى من الفضلاء الأعيان ، وأمر أن يكونوا في مواضع أخر ، وأظهر أنه فعل لهم ذلك بسبب ما يُدَّعَى فيهم أنهم مشتغلون بالحكمة وعلوم الأوائل . وهم أبو جعفر الذهبي، والفقيه أبو عبد الله محمد بن ابراهيم، قاضي بجاية، وأبو الربيع الكفيف ، وأبو العباس الحافظ الشاعر القرابي (٢٤) .

وفي الحديث عن نهاية محنة ابن رشد ورفاقه يقول ابن أبي أصيبعة : « وبقوا مدة، ثم ان جماعة من الأعيان باشبيلية شهدوا لابن رشد انه على غير ما نسب اليه ، فرضي المنصور عنه وعن سائر الجماعة، وذلك في سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وجعل أبا جعفر الذهبي مزورا للطلبة ومزورا للأطباء (٢٥) .

وقد أورد « رينان » قطعة من سيرة ابن رشد للأنصاري (وفق مخطوط المكتبة الامبراطورية ملحق عربي سنة ٦٨٢ ، ص ٧) جاء فيها عن محنة أبي الوليد : (٢٦)

« فكمدت سوق السعايات ، وضرب عن كل طالب ومطلوب ، والأعداء كانوا لا يسأمون من الانتظار ، ويرقبون أوقات الفرار ، فلما كان التلوُّم من المنصور بمدينة قرطبة ، وامتدّ بها أمد الاقامة ، وانبسط الناس لمجالس المذاكرة ، تجددت للطالبين آمالهم ، وقوي تالبهم واسترسالهم ، فأدلوا بتلك الالقيات، وأوضحوا ما ارتقبوا فيه من شنيع السوءات ، الماحية لأبي الوليد كثيرا من الحسنات . فثُرِثت بالمجلس، وتُدوولَت اغراضها ومعانيها، وقواعدها ومبانيها، فخرجت بما دلّت عليه اسوا مخرج . وربما ذيّلها مكر الطالبين ، فلم يكن عند اجتماع الملأ الا المدافعة عن شريعة الاسلام ؛ ثم آثر الخليفة فضيلة الابقاء ، وأغمد السيف التماس جميل الجزاء ، وأمر طلبة مجلسه وفقهاء دولته بالحضور بجامع المسلمين ، وتعريف الملأ بأنه مَرَق من الدين ، وانه استوجب لعنة الضالين . واضيف اليه القاضي ابو

---

(٢٤) المصدر نفسه .

(٢٥) انظر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٢ .

(٢٦) انظر : رينان ، ص ٤٣٨ ـ ٤٤٤ .

عبد الله ابن ابراهيم الاصولي في هذا الازدحام ، ولُفَّ معه في حريق هذا الملام ، لاشياء ايضا نقمت عليه في مجالس المذاكرة ، وفي اثناء كلامه مع توالي الايام ... » ثم يستمر الانصاري في الحديث عن الاجتماع بالجامع الاعظم بقرطبة ، الى ان يقول : « فنالهم ما شاء الله من الجفاء ، وتفرّقوا على حكم من يعلم السرّ واخفى ؛ ثم امر ابو الوليد بسكنى اليسانة ، لقول من قال : انه ينسب في بني اسرائيل ، وانه لا يُعْرَف له نسبة في قبائل الاندلس ... » ثم يتابع الحديث عن ابن رشد وصاحبه الذي لفه الحريق معه فيقول الانصاري « وليس في زمانهما من بكمالهما ولا من نسج على منوالهما ، وتفرق تلاميذ ابي الوليد ايدي سباء » (٢٧)

ومن الواضح انّ هنالك اسبابًا خفيّة قد دفعت الى نكبة ابن رشد : فالانصاري مثلا يواصل حديثه فيقول : « ويذكر ان من اسباب نكبته هذه اختصاصه بابي يحيى اخي المنصور والي قرطبة » . وقد اورد ابن ابي اصيبعة اسبابا اخرى . قال القاضي ابو مروان : « وممّا كان في قلب المنصور من ابن رشد انه كان متى حضر مجلس المنصور ، وتكلّم معه او بحث عنده في شيء من العلم يخاطب المنصور بان يقول : تسمع يا اخي . وايضا فان ابن رشد كان قد صَنَّف كتابا في الحيوان ، وذكر فيه انواع الحيوان ، ونعت كل واحد منها . فلما ذكر الزرافة وصفها ثم قال : « وقد رايت الزرافة عند ملك البربر »، يعني المنصور . فلما بلغ ذلك المنصور صعب عليه ، وكان احد الاسباب الموجبة في انه نقم على ابن رشد وابعده ... (٢٨) .

وكانت هذه المحنة التي اصابت ابا الوليد ، مناسبة اغتنمها خصومه للتشنيع عليه (٢٩) .

وبعد عودة الخليفة المنصور الى مراكش ، ما لبث ان عفا عن ابن رشد ورفاقه واستدعاه اليها . ولكنْ ما لبث ابن رشد ان

---

(٢٧) انظر : المصدر نفسه .

(٢٨) ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٢ .

(٢٩) انظر : النباهي ، ص ١١١ ، ريتان ، ص ٤٣٧ — ٤٤٤ .

توفي فيها ، بعد ذلك بقليل ؛ فكانت وفاته كما اوردها الأنصاري ، ليلة الخميس التاسعة من صفر سنة خمس وتسعين وخمسمائة بموافقة عاشر دجنبر . ودفن بجبانة باب تاغزوت . وبعد ثلاثة اشهر حمل الى قرطبة ، فدفن بها في روضة سلفه بمقبرة ابن عباس (٣٠) .

شخصية ابن رشد واثرها في ادبه :

كان لشخصية ابن رشد اثرها العميق في ادبه ، فقد طبعته بطابع العمق والجدية ، ونأت به عن الفنون الادبية التقليدية ؛ ولا عجب اذا رأينا العقلانية والواقعية تطبعان ادبه وانتاجه الفكري في جميع فنون المعرفة ، ولذا كانت الدراية اغلب عليه من الرواية (٣١) .

عُني ابو الوليد ابن رشد بالعلم من صغره الى كبره ، وكانت لهذه الحياة الجادّة آثارها في تكوين شخصيته . فكان على حد تعبير بعض الروايات ، على شرفه ، اشدَّ الناس تواضعا واخفضهم جناحا (٣٢) . ويورد ابن ابي اصيبعة حديثا للقاضي ابي مروان الباجي يقول : « كان القاضي ابو الوليد ابن رشد حسن الراي ، ذكيًّا ، رثّ البزّة ، قويّ النفس ، .. » (٣٣) .

كان لهذه المقومات الشخصية اثرها البعيد في حياة ابن رشد ، وما تركته من طوابع مميّزة في ادبه . فكان الى جانب السيرة الحميدة ، قد وهب ذاته للعلم والمعرفة ، وقَصَرَ حياته على خدمة وطنه .

فهذا صاحب التكملة يتحدث عن هذه الجوانب في شخصية ابن رشد فيقول : « وولي قضاء قرطبة بعد ابي محمد بن مغيث فحمدت سيرته ، وتأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة ، لم يصرفها في ترفيع حال ، ولا جمع مال ، انما قسرها على مصالح اهل بلده خاصة ، ومنافع اهل الاندلس عامة (٣٤) . وكان الى ذلك تأله ،

---

(٣٠) انظر : ربنان ، ص ٤٤٢ .
(٣١) انظر : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .
(٣٢) المصدر نفسه .
(٣٣) ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣١ .
(٣٤) التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

سمحا كريم النفس،فكان يبذل العطاء لقصّاده ، ويُلام احيانا على البذل لمن لا يُحبّونه ولا يُكفّون عن اتّهامه فيقول : إنّ اعطاء العدوّ هو الفضيلة ، اما اعطاء الصديق ، فلا فضل فيه . وقد اعطى مرة رجلا اهانه ، وحذّره من فعل ذلك بغيره لانه لا يأمن بوادر غضبه (٢٥) .

واذا كان ابن رشد متسامحا في امر نفسه ، فانه لم يكن متسامحا في امر غيره ؛ ومن ذلك قصّته مع الشاعر ابن خروف حين هجا ابا جعفر الجمري العالم المؤدب ، فقد اوجع الشاعر ضربا، وانذره ألاّ يعود لمثلها .

كانت شخصية ابن رشد مطبوعة على مزاج الفيلسوف الحكيم ، تنأى به عن الاتجاه الى تلك الفنون الادبية والفنية ، في الظرف والنغم والايقاع ، كما كان الشأن مع جلّة حكماء ذلك العصر واطبائه ، مثل ابن طفيل،وابن باجة،وابن زهر،وغيرهم . وهكذا كان ابن رشد يحسن المساجلة ولا يحسن المنادمة . ولا يبالي تزييف لغة « البلاط » في سبيل تحقيق لغة العلم،ورفع الكلفة من مجالس الباحثين فيه (٢٦) . وربما كانت هذه الصفات من الاسباب الخفيّة التي ادّت الى التنكيل بهذا المفكر الاسلامي العظيم .

لقد اجمع اكثر الدارسين لابن رشد على وصفه بأنه « اكثر شُرّاح مؤلفات ارسطو عمقا » (٢٧) . كان ابن رشد معجبا الاعجاب كله بالمعلم الاول « ارسطو » .

ولكن يبقى السؤال الضخم امام دارس ادب ابن رشد ، وهو : الى اي حدّ تاثر ابن رشد شخصيا بآراء ارسطو وفلسفته في الاخلاق والسياسة والخطابة والشعر ؟ وبعبارة اخرى فنحن نتساءل الى اي حدّ نستطيع ان نعتبر هذه الآراء تمثّل فلسفة ابن رشد واتجاهاته في فهم العلوم والآداب ؟

---

(٢٥) انظر : العقاد ، ص ١٩ .
(٢٦) انظر : العقاد ، ص ٢٦ .
(٢٧) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ٢٨ .

ومما لا شك فيه ان هنالك عاملين اساسيين أثّرا في مفهومه المتميّز للأدب ، وهذان العاملان هما شخصيّته الجادة ، وتكوينه الثقافي ، واشتغاله بعلوم الأوائل بانصرافه الى دراسة ارسطو والتعمّق بشرح فلسفته وآرائه .

وان نظرة شاملة في مؤلفات ابن رشد (٢٨) تظهر لنا الطابع العقلاني لأدب أبي الوليد ؛ فمؤلفاته بصورة عامة يمكن تقسيمها الى اربعة أقسام : فهنالك شروح أو مصنّفات فلسفية وعلمية ، وشروح أو مصنفات طبية ؛ وكذلك هنالك مصنّفات كلامية وفقهية ، ومصنّفات ادبية ولغوية .

وكان مجال التأليف عند ابن رشد قد تأثر بطبيعة نظرته الفلسفية ؛ فقد حرص دائما على تأكيد ذلك المذهب الفلسفي الذي تميّزت به الفلسفة العربية في الأندلس خاصة ، والفكر العربي بصورة عامة ؛ ونحواه تقسيم الأقيسة الى ثلاثة اصناف : برهانية وجدلية وخطابية . وبناء على ذلك يقسم الناس الى فئات أو طبقات ثلاث متقابلة : هم أهل البرهان ، فالجدليون ، فالخطابيون . وهو يعني بأهل البرهان الفلاسفة أو الخاصة ، وبالخطابيين جمهور الناس الغالب أو العامة ، وبالجدليين طائفة من الناس هي دون الفلاسفة مرتبة ، الا انها مع ذلك تتميّز عن الجمهور ، هم المتكلمون (٢٩) .

وربما يَسْهُل على دارس مؤلفات ابن رشد ، بعد هذا ، ان يصنّفها وفق هذه الأقيسة . فنحن نعتقد مثلا ان كتابة « تهافت التهافت »

---

(٢٨) في مؤلفات ابن رشد انظر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، التكملة ج ٢ ، ص ٥٤٤ — ص ٥٥٥ ؛ الذهبي ، ص ؛ ريفن ، ص ٧٩ — ٩٣ وهما من اكثر القوائم ضبطا وتفصيلا ؛ وهناك نشرة الأب « بوبنج » عن مخطوطات ابن رشد الموجودة في انحاء العالم . وقد اشارت المصادر ايضا الى تلك القائمة المهمة التي تحوي مؤلفات ابن رشد في المخطوطة رقم ٨٨ ، بمكتبة الأسكوريال باسبانيا .

(٢٩) انظر : فخري ، ص ٣٣ .

هو مساجلة ادبيـــة قام باثنائها بفحص دقيق،وتاويل عميق متبصّر لكتـــاب « تهافت الفلاسفة » للغزالي . فهـــو ينعي بحرارة على الغـــزالي حين يصرّح بانه لـــم يقصد من تهافته بيان الحقّ في نفســـه ، وانما قصد التشويش على الفلاسفـــة ، ونزع الثقة بهـــم ... (٤٠) . وكذلك تستطيع ان تدرج في إطـــار الادب ، وفق مفهوم ابن رشـــد ، كتابه الذي سمّاه « فصل المقـــال فيما بين الحكمة والشريعة مـــن الاتصال »، وكتاب "منهاج الادلة في علـــم الاصول"... وغيرها ، دون أن نضـــع حـــدًّا فاصلا بين علم الكلام واثره فـــي الادب .

امـــا في مجال اللغة ، فقد اشارت المصادر الـــى « كتابه في العربية الذي وسمـــه بالضروري » (٤١) . وكذلك كتابـــه في الكلام على الكلمة والاسم المشتق (٤٢) . وهكـــذا نستطيع القول إن مجالـــه الادبي قد أثـــرى بتلك المعركـــة الفكرية التي تركت اثـــرا عميقا في التفكير الاسلامي ؛ هذا مع العلـــم ان الفلسفة الادبية لم تشغل ســـوى حيّز صغير فـــي مذهب هـــذا الفيلسوف ، بازاء فلسفته المـــادية . فقد كان الخلاف ، بينه وبين المتكلمين في الفلسفة الادبيـــة،شبيها بالخلاف بينه وبينهـــم في فلسفتـــه الطبيعية (٤٣) .

لقـــد كانت شخصية ابن رشـــد واضحة متميزة في ادبـــه،وفي اجتهاده الفكـــري،وفي فلسفته . وإنّ تصانيفـــه التي وسمها بالشروح ، كانت على مستويات مختلفـــة من حيث المنهج والغاية التـــي يرمي اليها . وهو في ذلك كلّـــه كان يميز احيانا ، حتى في هـــذه الشروح ، بين رايـــه ورأي المتن الذي يشرحـــه .

وهكذا فان شخصية هـــذا القاضي الفيلسوف ، التـــي طُبِعت على الجِـــدّ ، قد تركت آثارها العميقة فـــي مفهومه للأدب . فقد كان

---

(٤٠) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ١٦٧ .
(٤١) التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .
(٤٢) انظر : رينـــان ، ص ٩٠ .
(٤٣) انظر : فـــرح ، ص ٥٨ .

يتعفّف عن حضور مجالس اللهو والطرب ، مما استباحه جملة من علماء عصره وحكمائه . وقد بلغ من تعفّفه عمّا لا يراه ملبقا بعلمه ومكانه من القضاء انه ، « احرق شعره الذي نظمه في الخزل ايام شبابه » . وبذلك ، مع الاسف ، حُرِم الدارسون من مصدر مهم من مصادر دراسة ادبه وحياته .

وفي هذا الاطار العقلاني لمفهوم الادب ، وتغليبه هذا الجانب على الجانب الفني ، نورد الرواية التالية :

قال ابو الفضل التفاشي : جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه ابي الوليد ابن رشد والرئيس ابي بكر ابن زهر ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما ادري ما تقول ، غير انه اذا مات عالِمٌ باشبيلية ، فأُريدَ بَيْعُ كتبه حُمِلَت الى قرطبة حتى تُباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأُريدَ بَيْعُ آلاته حُمِلَت الى اشبيلية (٤٤) .

ارتباط الادب عند ابن رشد بالحقيقة والمعرفة :

نظر ابن رشد الى الادب نظرة شاملة وعميقة ، وقد فهم رسالته الادبية من خلال اتجاهين اساسيين استغرقا حياته الادبية كلّها . وهذان الاتجاهان يتميزان بالبحث عن الحقيقة وواجب الوجود من ناحية ، وعن المعرفة التي هي عبادة للخالق ؛ ويلتقي ابن رشد في ذلك مع الفارابي وغيره من المفكرين الاسلاميين الذين يعتبرون البحث عن المعرفة عبادةً لله سبحانه وتعالى وتسبيحا له في ملكوته . ولنستمع الى ابن رشد في هذه العبارة التي حُذِفَت على حد تعبير « رينان » من شرح ما بعد الطبيعة في الطبعات اللاتينية ، وقد ترجمها مسيو « منك » من العبرية .

قال ، قال ابن رشد : « يقوم دين الفيلسوف الخاص على دراسة ما هو كائن ؛ وذلك لان ارفع عبادة يمكن ان يعبد الله بها ، تقوم

---

(٤٤) النسخ ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

على معرفة ما صنع ، لما يؤدي اليه هذا من معرفتنا اياه على حقيقته كلها . وهذا هو اصلح الأعمال عند الله ... » (٤٥) .

اتجه ابن رشد الى البحث عن الحقيقة ، تاركا لنا في ذلك نتاجا خصبا واديا رفيعا يقع على حد تعبير بعض الروايات في حوالي مئة الاف ورقة .

وهو في بحثه عن الحقيقة ، كان له موقف متميّز عن المسائل الكبرى التي اثارت الجدل في عصره وفيما تلاه من القرون الوسطى . فقد ثار الجدل حول مسالة قِدَم العالم ، ومسالة علم الله بالجزئيات ، ومسالة النفس وبقائها ؛ هذا فضلا عن مسالتين أخريين ، ثار حولهما الجدل واحتدم وهما : مسالة الصفات الالهية ومسالة الحقيقتين . والمسالة الاخيرة مؤداها ان حقيقة الشرع وحقيقة العلم والحكمة شيء واحد يختلف في العبارة ولا يختلف في الجوهر . وقد شغلت هذه القضية اقلام الكتّاب والمفكرين في ذلك العصر . فوضع ابن طفيل قصّته المعروفة « حي بن يقظان » ووضع ابن رشد كتابه المرسوم « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » . فالفكرة التي املت على ابن طفيل قصته ، هي ذاتها التي املت على ابن رشد كتابه . وان الفرق بين الأسلوبين يعود الى الفرق بين شخصيّتي الكاتبين .

فابن طفيل ، كما يبدو من اخباره وآثاره ، صاحب مزاج طريف ، يُحسن فنَّ المنادمة والمسامرة ، في حين ان شخصية ابن رشد الجادة ، ونظرته العقلانية الى الاشياء ، قد تردد اصداؤها في ادبه ، مما حدا بمن ترجموا له بوصفه بان الدراية كانت اغلب عليه من الرواية (٤٦) . وكان وصفه هذا في مجال الفقه ، ولكنه ينسحب بطبيعة الحال على حياته الثقافية والفكرية كلها . فقد تميز ابن رشد منذ وقت مبكر في

---

(٤٥) رينان ، ص ١٧٦ .

(٤٦) التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

مجال الفقـــه ، بالنظرة العقلية والقياس في الأحكـــام . هذا مع العلم أن محصوله في الروايـــة كان واسعا . وان المصـــادر تُحدّثنا بأنه كان يحفظ الموطّـــا عن ظهر قلب (٤٧) .

وان نزعة التوفيق بـــين الشريعة والفلسفة تُعتَبَر بمقاييس الأصالة والطرافة في تفكيره . أمـــا في مجال المعرفة ، فلم يَتوانَ ابن رشد في البحـــث والتنقيب عن جميـــع المعارف الانسانية دراسة وتحقيقا وشرحا ، وفي مختلـــف الحقول ، في الطـــب والمنطق والفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها مـــن صنوف المعارف الانسانيـــة

فالبحث وراء المعرفـــة ، في نظر ابن رشد يُقرّبُه الى فهـــم حقيقة الخالـــق ؛ فهو عبادة وتسبيح للّـــه في ملكوته وبالتالي فان هـــذا المسرى يؤدي بـــه الى فهم جوهر الدين وحقيقته، حيث يُتمّـــم « الوحي » ما عجز عنه العقـــل . وهكذا فان الأدب ونتاج الفكـــر الانساني يرتبط في نظر ابن رشـــد بالحقيقة والمعرفة من حيث الغايـــة والهدف .

الخطابة عند ابـــن رشد :

وفي هذا الموضوع لا بُـــدَّ لنا ان نقف عند كتـــاب « تلخيص الخطابة » ، حيث يبدأ ابن رشـــد الكلام فيه في كل فقرة بقوله : « قال » ثـــم يورد بضع كلمات من أوائـــل الفقرة، ويمضي بعد ذلك فـــي الشرح ، دون أن يتميز مـــا لأرسطو مما لـــه هو ذاته ، ويستطرد أحيانا ويأتي بكثير من الأمثلة من عنـــده، ولكنه في هذا كلّه يتابع ترتيـــب النص الاصلي لأرسطو ويتقيّد بـــه . ويتوسع أحيانا ، فيزيد كثيرا عـــن حجم نص ارسطو (٤٨) . وقد فرغ ابن رشـــد من كتابه هذا يـــوم الجمعة الثالث من شعبان من عـــام سبعين وخمسمائة ، بقرطبـــة (٤٩) .

وقد تَوسَّع ابـــن رشد في ايضاح معاني أرسطو التي يذكرها النص ؛ وهو يعترف فـــي نهاية الكتاب ان ما سَجَّله لـــم يتعدَّ فهمه

---

(٤٧) انظر : رينـــان ، ص ٦٣ .
(٤٨) انظر : تلخيص الخطابـــة ، ص ر .
(٤٩) تلخيص الخطابة ، ص ٢٣٢ .

واستيعابه لهذه النصوص ، اذ يقول : « وقد لخصنا منها ما تأدى الينا فهمه ، وغلب على ظننا انه مقصوده ؛ وعسى الله أن يمنّ بالتفرغ التام ، للفحص عن نص اقاويله في هذه الأشياء (٥٠) .

وان هذا الاتجاه يحملنا على الاعتقاد بطابع ابن رشد وشخصيته في هذه الشروح ، ولا سيما في « تلخيص الخطابة »؛فتراه مثلا يستبدل في كتابه هذا بالأمثلة اليونانية نظائرها في اللغة العربية ، متلائما مع البيئة العربية الاسلامية التي يكتب لها ويعيش فيها ؛ فيورد شواهد من الفقه والتاريخ الاسلامي واللغة العربية . وقد نجح ابن رشد نجاحا كبيرا في تطبيق القواعد والنماذج التي يذكرها ارسطو ، على اللغة العربية وتراثها ، ولا سيما في المقالة الثالثة : اقسام من الخطابة ، في صفات الأسلوب ... الخ (٥١) .

فان ابن رشد يتبنّى مذهب « المعلم الأول » ارسطو في الخطابة، كما يتبناه في الشعر ، كما سنرى فيما بعد.« فصناعة الخطابة » تناسب صناعة الجدل ، وذلك ان كلتيهما تؤمّان غاية واحدة وهي مخاطبة الغير ... ويوجد استعمالهما مشتركا للجميع ؛ أعني أن كلّ واحد من الناس يستعمل، بالطبع، الأقاويل الجدلية والأقاويل الخطابية ... (٥٢) . وفي موضع آخر يقول : « وكلّ واحد من الناس يوجد مستعملا لنحو ما من أنحاء البلاغة ، ومنتهيا منها الى مقدار ما ، وذلك في صنفي الأقاويل اللذين أحدهما المناظرة،والثاني التعليم والارشاد . وأكثر ذلك في الموضوعات الخاصة بهذه الصناعة،وهي مثل الشكاية والاعتذار وسائر الأقاويل التي في الأمور الجزئية ... (٥٣) .

فالكلام عنده على مذهب ارسطو ، مركّب من ثلاثة : من قائل ، وهو الخطيب؛ومن مقول فيه ، وهو الذي يعمل فيه القول ؛ ومن

---

(٥٠) تلخيص الخطابة ، ص ٣٣٢ .
(٥١) انظر : تلخيص الخطابة ، ص ٢٤٨ — ٣٣٢ .
(٥٢) تلخيص الخطابة ، ص ٣ .
(٥٣) تلخيص الخطابة ، ص ٤ .

الذين يوجه اليهم القول ، وهم السامعون . والغاية بالقول انما هي متوجهة نحو هؤلاء السامعين . والسامعون لا محالة إمّا مُناظِر ، وإمّا حاكم ، وإمّا المقصود اقناعه ... والحاكم في الامور المستقبلة ، هو الرئيس ، والحاكم في الامور الكائنة هو الذي ينسبه الرئيس مثل القاضي في مدننا هذه وهي مدن الاسلام . واما الناظر فانما يناظر بقوة الملكة الخطابية (٥٤) .

ولنستمع لابن رشد كيف يطبّق نظريات ارسطو في تفصيل الاقاويل الخطابية على نصوص من اللغة العربية ، بل يستشهد على ذلك بآيات من القرآن الكريم . قال : والمكرور والمماثل في الاقاويل الخطابية ، هو ان يكون اول القول وآخره بلفظ واحد او قريب من الواحد .وهذا مثل قولهم : « القتل انفى للقتل » ، ومثل قوله تعالى (الحاقة ما الحاقة ، وما ادراك ما الحاقة) .. (٥٥) .

وهنالك أمثلة كثيرة ؛ بل ان المقالة الثالثة كما اشرنا سابقا ، هي محاولة جادّة من ابن رشد ، لكي يتمثّل نظريات ارسطو في الخطابة ويطبقها على اللغة العربية وآدابها . ولنستمع اليه يقول :

« واما الاسماء المترادفة ، فصالحة جدًّا لصناعة الشعر . وقد تصح ايضا لصناعة الخطابة . والشاعر يستعمل هذا الصنف لاسباب اخصّها به استعمالها لتصحيح الوزن والقافية ، مثل قوله :

« وهِنْدٌ أتى مِن دونها النأيُ والبُعدُ » (٥٦) .

فابن رشد يشير بهذا النص الى بيت للحطيئة من داليّته المشهورة التي يمدح بها بغيض بن عامر ، ومطلعها :

« الا طَرَقَتْنا بَعدما هجعوا هِندُ ــ وقد سِرْنَ خَمساً وآتلأبَ بنا نَجدُ » .

وتمام البيت الذي استشهد به ابن رشد هو :

---

(٥٤) تلخيص الخطابة ، ص ٢٨ ــ ٢٩ .
(٥٥) تلخيص الخطابة ، ص ٢٨٨ .
(٥٦) تلخيص الخطابة ، ص ٢٦٣ .

ألا حَبّذا هِندٌ وأرضٌ بها هِندُ : وهِندٌ أتي مِن دونها النأى والبعد

وفي حديثه عن توابع الالفاظ يقول :

« وينبغي أن تعلم أن الأخذ بالوجوه (٥٧) ليس له غناء في الخُطَب الكتوبة وانما غناؤه في المَتْلُوّة ؛ وان عادة العرب في استعمالها قليلة . ولما من سلف من الامم ، فربما اقاموها في الأشعار مقام الالفاظ ، اعني التشكيلات ، ويحذفون اللفظ الدالّ على ذلك المعنى اما ارادة الاختصار ، وإما طلبًا للوزن والالذاذ ؛ وهذا لم تجر به عادة العرب . ولهذا صار ما يقول ارسطو في كثير من هذه الأشياء ، كما يقول ابو نصر ، غير مفهوم عندنا ولا نافع . والأخذ بالوجوه انما هو نافع اكثر في الخطب التي تتلى على جهة المنازعة ، لأنه انما يحتاج الى الاستعانة بجميع الأشياء المقنعة في موضع المنازعة لتحصل الغلبة .

ومثل هذه الخطب هي الخطب التي كانت بين علي ومعاوية . ومثال ذلك في الأشعار ، كالأشعار التي كانت بين جرير والفرزدق (٥٨) .

وهكذا فقد اضاف ابن رشد اضافات اصيلة في الشروح التي وضعها على مصنّفات ارسطو . ولم يَكتفِ بالنقل ، بل ترك آثار مبقريته الفذّة على تلك النظريات والآراء ، التي قامت بدور مهمّ في النهضة الادبية فيما بعد .

ابن رشد والشعر :

لم يكن ابو الوليد ابن رشدا شاعرا ولا ذا طبيعة شعرية ؛ فان اتجاهه الفكري ، وما جُبِل عليه من جدّية في التفكير والسلوك ، كانا ينأيان به عن حياة الفن والشعر .

ولم يكن ابن رشد في عالم الشعر، مع ذلك كله ، بأقل من أولئك النجباء ، الأتقياء من نظرائه من كبار الفلاسفة ، والأطباء والفقهاء ،

---

(٥٧) وقد عرّف « الاخذ بالوجوه » بقوله : « الامور المستعملة مع الالفاظ على جهة المونة في جودة التفهيم وايقاع التصديق وبلوغ الغرض المقصود » . انظر : تلخيص الخطابة ، ص ٢٥٠ .

(٥٨) تلخيص الخطابة ، ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

كابن سيناء وابـــن حزم وغيرهما ، في المشرق ، كما هـــو في المغرب والاندلس ؛ وقد كان الشعر في الاندلس،على حـــد تعبير بعض الروايات ، سائرا على جميع الالسنـــة في الاندلس ؛ فالشعر يجري علـــى ألسنة الرجال كما يجري على ألسنـــة النساء ، ويجري على ألســـنة الشعراء كما يجري على ألسنـــة الفقهاء والعلماء . ولكنَّ شعـــر هؤلاء العلماء لم يكن ليتجاوز النظـــم والتاليف المحكم بين المقاطع والالفاظ . ونحسن اذا استثنينا بعض الامثلـــة القليلة ، فاننا نستطيع القـــول : إن جميع هؤلاء العلماء قـــد نظموا الشعر وانتحلوه ، دون أن يكونـــوا ذوي شان في مجال الغنائية أو الفـــن ، ولكنه حلية يتّصف بها كـــل نجيب . وكان ابن رشـــد من كبار هؤلاء النجباء الالبّاء ، فلا بـــدّ من أن يضيف الشعر الى جملة علومـــه وكفاياته .

فهذا ابـــن الابار يصفه فيقـــول :

« وكان يُفزَع الـــى فتواه في الطب كما يُفزَع الـــى فتواه في الفقه ، مع الحظّ الوافر مـــن الاعراب والآداب . حَكَى عنـــه ابو القاسم بـــن الطيلسان انـــه كان يحفظ شعر حبيب والمتنبـــي ، ويُكثر التمثّل بهما في مجلسه ، ويورد ذلك احســـن ايراد » (٥٩) .

ويحدّثنا ابـــن سعيد ، صاحب المغرب ، وقد كـــان قريب عهد من الفترة التي عاش فيها ابـــن رشد ، فيقول : « ادركه والدي وقـــرأ عليه ، وقال في وصفـــه الشقندي : « فقيـــه الاندلس ، وفيلسوفها الـــذي لا يَحتاج في نباهته الى تنبيـــه » . وانشد من شعره قولـــه :

مـــا العِشـــقُ شأني ، ولكـــنْ لستُ أُنكِرُهُ
كـــم حَـــلَّ عقـــدةَ سلوانـــي تَذَكُّـــرُهُ

مـــن لـــي بِغَضِّ جفوني عـــن مخبّرة الـــ
أجفـــان قـــد اظهَرَتْ مـــا لســـتُ أُضمِرُهُ

---

(٥٩) التكملـــة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

لـولا النُّهـى لأطعْـتُ اللَّحْـظ ثانيـةً
فيمـن يَـرُدُّ سنـا الألحـاظ مَنْظَـرُهُ

مـا لابْـنِ ستّـينَ قادَتْـه لِغايَتِـهِ
عشريـةٌ فنـاى عنـه تَبَصُّـرُهُ

قـد كـان رضوى وقـارًا فهـو سافيـةٌ
الحُسْنُ يـوردُه ، والهون يُصـدِرُهُ (٦٠) .

وفي هـذا الموضوع ، يتحدث الفيلسـوف الفرنسي المشهور ، ارنست رينـان ، فيقول :

« ونعلم من ليـون الافريقي ان ابن رشـد كان قد نظم عدة قصائد خلقية وغزلية ، فاحرقهـا في مشيبه ؛ وينقل ليون الينا قطعة منهـا تجعلنا نفترض بالحقيقـة ، كون الحكمة ، من بعض النواحي ، لـم تأت ابن رشد الاّ مـع السنين .. (٦١) . ومهما يكن من أمـر ، فقد راض ابن رشد نفسه علـى التوقّر فبالغ في رياضتهـا ، وربّما دفعه ذلك الى حرق اشعـاره نظمها في صباه ؛ وبذلك ، مع الأسـف ، فَقَدْنا لونًا مهمًّا من نتاج عبقريته ، يمكـن ان يُلقي ضوءا على حياته الخاصـة ونتاجه الأدبـي .

لـم يكن ابن رشد ممن نَظَـم الشعر وانتحله ، على مذهب نظرائه من العلماء والفلاسفة ، ولكنه كان لـه موقف من الشعر ، بصورة عامـة ، يتداخل مع موقف ارسطـو ونظريته في الشعر . والواقـع ان تلخيصه « فـن الشعر » لأرسطو يشهد بعلوّ كعبه في الادب العربـي ، ولا سيما شعر مـا قبل الاسلام .

وتجـد في كل صفحة من هذا الكتاب ، على حـد تعبير المستشرق الفرنسي ارنست رينـان ، استشهادا بعنترة وامرىء القيس والاعشـى والنابغة وابي تمـام والمتنبي وكتاب الأغانـي ... (٦٢) .

---

(٦٠) المغرب ، ج ١ ، ص ١٠٤ ــ ١٠٥ .
(٦١) رينان ، ص ٦٢ ــ ٦٣ .
(٦٢) انظر : رينـان ، ص ٦٣ .

ويربط ابن رشد بين الموسيقى والشعر ، كما هو الأمر عند أرسطو ؛ فالموسيقى بنظره تُعْنَى بتثقيف النفس وتمريسها على الفضائل الخلقية . وهو يعني بالموسيقى الأقاويل المحلية ذات اللحن ، على حد تعبيره . فكانت بهذا الفن خادمة لصناعة الشعر الذي يؤثر في الصِبْيَة والأحداث اكثر من الخطابة والبرهان — وهما ضربان من ضروب الاقناع — . فاذا رقوا عن هذا الطور استُصلِحَت معهم الأقاويل الخطابية والجدلية ، وفي الطور الأخير البرهانية التي يراد بها الفلاسفة او الحكماء خاصة (٦٢) .

فابن رشد ينظر الى الشعر ، وفق نظرة أرسطو ، وذلك من خلال وظيفته في التربية وتأثيره في الناشئة ؛ ومن ناحية اخرى فانه يرى فيه صنفا من صنوف الاقناع ؛ والاقناع احد سبيلين رئيسيين لغرس الفضائل في نفوس سكان الدولة . فالاقاويل الخطابية والشعرية يخاطَبُ بها الجمهور ، وقد اعتمدها ايضا افلاطون في « الجمهورية » (٦٤) .

فابن رشد يقف من الشعر من خلال وظيفته التربوية موقفا هادفا ؛ فمن القصص التي ، كما يقول ، ينبغي نبذها ما كان حاثا على طلب اللذة او على ابتغاء المال ، لانها تحول دون التمرس بسياسة الجندية . وهذه المفاسد ، كما يقول ابن رشد ، يكثر ذكرها في اشعار العرب ، « فلم يكن اضر من تلقينها للصبية منذ نعومة اظفارهم » ؛ وهو ما درج عليه معلموهم منذ القدم (٦٥) .

لا شك أن ابا الوليد يقف موقفا انتقائيا من الشعر العربي في مجال التربية . وهذا امر ينسجم والاهداف التربوية السامية ، التي رسمها منذ البداية ، من وجوب غرس الفضائل في نفوس ابناء المدينة الفاضلة . ولا يمكن ان يكون هذا الموقف حُكْمها للشعر العربي

---

(٦٣) انظر : فخري ، ص ١٢٣ .
(٦٤) انظر : فخري ، ص ١٢٣ .
(٦٥) انظر : فخري ، ص ١٢٦ .

بصورة عامة ، وهو الذي كان يحفظ شعر حبيب والمتنبي ، ويُكثر التمثل بهما في مجلسه .

كان لابن رشد باع في قول الشعر ، ولكنّه لم يكن يمثل جوانب عبقريته المشرقة ؛ وكانت له آراء ونظرات فنية ونقدية فيه امتزجت بآراء ارسطو ونظرته للشعر امتزاجا كلّيّا . ونحن نعتقد ان ابن رشد قد حالفه التوفيق في مجال الشعر كما حالفه في مجال الخطابة ، من حيث محاولته لتطبيق نظريات ارسطو على نماذج اصيلة في اللغة العربية وآدابها ، شعرا ونثرا ...

ادب ابن رشد ونزعته الانسانية والاجتماعية :

لقد ذاع صيت ابن رشد بين « اللاتين » لامرين ؛ لكونه طبيبا وكونه شارحا لأرسطو ؛ بيد ان فخره شارحا اعظم من فخره طبيبا بمراحل . فمهما يكن من شهرة نالتها « الكليات » لم تبلغ ما ناله « قانون » ابن سيناء من اعتبار بالغ (٦٦) . وانما انتهى بشرحه الاكبر الى تكوين قطب ثبت في الفلسفة ، « فالطبيعة تفسر بارسطو، وارسطو يفسر بابن رشد » (٦٧) .

وألّف ابن رشد،عدا هذه الشروح ، عددا كبيرا من الكتب يُعْسُر احصاؤها تماما . وقد شَمَلت مؤلفاته مختلف مجالات المعرفة الانسانية : في الفلسفة ، وعلم الكلام ، والفقه ، والفلك ، والطب ، والنحو ، واللغة .

ونحن اذا تجاوزنا مفهوم الادب من حيث هو نتاج فكري هدفه التسلية والوعظة الى مفهوم أعمّ ، وذلك من حيث هو نتاج فكري يؤثر الكاتب من خلاله في القارىء ويحركه نحو الافضل ، نكون قد افترضنا كثيرا لكي نصنّف في هذا الاطار مجموعة من مؤلفات ابن رشد الادبية ، وأهمّها :

---

(٦٦) انظر : ريفان ، ص ٧٣ .

(٦٧) المصدر ذاته .

١ ــ كتاب « تهافت التهافت » ، وقد وضعه ابن رشد لكي يرد به كتاب الغزالي الذي عنوانه « تهافت الفلاسفة » .

٢ ــ كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ، وقد حاول فيه ابن رشد أن يوفّق بين الشريعة والفلسفة .

٣ ــ كتاب « الكشف عن مناهج الأدلّة » .

ولكي نستطيع أن نفهم اتجاهات ابن رشد في مؤلفاته المتنوعة ، لا بُدَّ لنا أن نتعرف على نظرة ابن رشد للكاتب ، من ناحية ، وللوسط الجمهور الذي يكتب اليه من ناحية اخرى . فالناس في نظره مختلفون حسب استعداداتهم وقدراتهم ، ومن هذا التفاوت في الفِطَر والعقول ، جعل الناس على حد تعبيره طوائف ثلاثا :

١ ــ الخطابيّون ، وهم الجمهور الغالب الذي يصدق بالأدلة الخطابية .

٢ ــ اهل الجدل ، ومنهم رجال علم الكلام ؛ وهم الذين ارتفعوا من العامة ولكنّهم لم يصلوا لأهل البرهان اليقيني .

٣ ــ البرهانيون ، بطبعهم وبالحكمة التي أخذوا انفسهم بها .

وبناء على ذلك يقول ابن رشد بانقسام الشريعة الى ظاهر له اهله ، وهم العامة واشباههم ، وباطن له اهله ، وهم ذوو البرهان (٦٨).

وان نظرية ابن رشد في التعلُّم تقوم على هذه الفروق الفردية ، اذ كان ينادي دائما « بأنَّ جَعْلَ الناس شرعا واحدا في التعلُّم خلاف المحسوس والمعقول » ؛ هذه النظرية التي كانت معروفة جيدا عند الكثير من الفلاسفة قبله ، مثل الفارابي وابن سينا وغيرهما ...

كان ابن رشد يرى وجوب تقيد الكاتب بنوعية الجمهور الذي يكتب اليه . فقد حرم مثلا الحديث مع الجمهور في علم الله على النحو

---

(٦٨) أنظر : بين الدين والفلسفة ، ص ٩٣ .

الفلسفي . وقد اخذ على الغزالي اثباته التأويل في غير كتب البرهان ، وتقديمه ذلك الى جمهور الناس . وشجب المتكلمين ، وبخاصة المعتزلة ، انهم بتأويلهم التي مَرَّحوا بها للجمهور ، اوقعوا الناس في شبهات وتباغض وحروب ، ومزقوا الشرع (٦٩) .

ولكننا نجد ابن رشد يقع في مثل هذا الطبع ، فيعتذر ، بأن الجمهور قد عرف من اولئك الذين يلومهم هذه التأويل . فكان لا بدَّ له أن يتكلم فيها ، وذلك لبيان الحق من جهة ، ولدفع الاذى عن الجمهور من جهة اخرى .

وان هذا اللون من الكتابة التي خرج بها من اطار كتب الخاصة ، اهل البرهان ، الى نطاق العامة ، اهل الجدل والخطابة ، ليست في جوهرها سوى مساجلات ومناظرات كتابية ، يحاول الكاتب دحض آراء خصومه ، واصلاح ما افسدته ، على حد تعبيره ، لدى الجمهور . بل ينصّ احيانا ان بعض الافكار ، لا سبيل الى انشائها في هذا الكتاب ، مما يؤكد ان كتاب « تهافت التهافت » ، ليس من الكتب التي تُدَّخَر للخاصة،وانما هو كتاب للعامة،على حَدّ مفهومه ؛ اذ يقول احيانا في مناقشة بعض الموضوعات : ، « وهذا العلم لا سبيل الى انشائه في هذا الموضع » (٧٠) .

وان اسلوب ابن رشد في « تهافت التهافت » ، يبتعد كثيرا عن الأساليب البرهانية ، فقد خرج به من هذه الدائرة من حيث الهدف ، ولكنه يتلوّن احيانا بانفعالية تُخرج الكاتب عن وقاره وموضوعيته الى السباب والتهكم اللاذع .

فيشير الى ابي حامد الغزالي فيقول : « فاتيانه بمثل هذه الأقاويل السفسطائية قبيح ، فانه يُظَنُّ به انه ممن لا يذهب عليه ذلك ، وانما اراد بذلك مداهنة اهل زمانه » (٧١) وهذه تهمة ، ولا شكَّ ، خطيرة يوجّهها ابن رشد الى ابي حامد . وفي موضع آخر يقول :

---

(٦٩) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ١٠١ .
(٧٠) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٩٢ .
(٧١) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٩٣ .

« قلت : هذا الكلام،الذي هو جواب عن الفلاسفة ، في نهاية السقوط » (٧٢) . وفي مكان آخر « قلت : هذا كله سفسطائي خبيث » (٧٣) . وكذلك : « هذا بَيِّن بنفسه » وقائل هذا ، هو الملبس ، لا الفلاسفة ، فان الملبس هو الذي يقصد التغليط لا الحق . واذا اخطأ في الحق فليس يقال فيه : انه ملبس » (٧٤) . وفي تعليق له حول بعض الافكار يقول : « وهذا كله عند الفلاسفة هوس وتخليط » (٧٥) . وكثيرا ما يَتَّهم ابنُ رشد ابنَ سينا وشيعته فيقول : « فانظر هذا الغلط ، ما أكثره على الحكماء ؟ فعليك ان تتبين قولهم هذا : هل هو برهان أم لا ؟ اعني في كتب القدماء ، لا في كتب ابن سينا وغيره ، الذين غيَّروا مذهب القوم في العلم الالهي ، حتى صار ظنيا » (٧٦) .

ويتهم أحيانا ابن سيناء،والفارابي احيانا ، بعدم فهم مذاهب قدماء الفلاسفة ، فيقول : « قلت : هذا كله تَخَرُّص على الفلاسفة من ابن سيناء وابي نصر ، وغيره ... (٧٧) . وقد يهاجم الغزالي بعنف ، مع دحضه لآراء ابن سينا اذ يقول : « واما الكلام فيما سئل عنها (أي العقول) فانفرد ابن سينا بالقول الذي حكاه (أي الغزالي) عن الفلاسفة وتَجَرَّد هو للرد عليهم ، ليوهم انه ردّ على جميعهم .

وهذا ، كما قال ،"تَعَمُّق ممَّن قاله في الهوس » (٧٨) . وهو هو أيضا ينعي على الفارابي وابن سينا مقالهما ، اذ يصيح منددا : « والعجب كلّ العجب ، كيف خفي هذا على ابي نصر وابن سينا ، لانهما أول من قال هذه الخرافات،فقلَّدهما الناس ، ونسبوا هذا القول الى الفلاسفة ... » (٧٩) .

---

(٧٢) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ١٦٠ .
(٧٣) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .
(٧٤) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٥٣ .
(٧٥) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .
(٧٦) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٠١ .
(٧٧) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٠٦ .
(٧٨) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .
(٧٩) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٩٧ .

وان مثل هـذه الاشارات التي تنم عن اسلوب انفعالـي كثيرة جـدا . وهو في اسلوبه هذا قد يَعْنُف الى حـدّ السباب،ويهزأ الى حـد السخرية اللاذعة . ففي مناقشته لبعض آراء ابـي حامد يقول : « فهو صادق في ذلـك ، اذ لم يبلغ الرجـل المرتبة من العلـم المحيطة بهذه المسألة . وهذا هـو الظاهر من حاله فيما بعد .. » (٨٠) .

وقد وقع ابـو حامد الغزالي في تيّار السباب والعنف ايضـا ؛ ولنستمع الى الغزالي وقد جاوز حـدّ الانفعال الى السباب تقريبا اذ يقول :

« قال ابـو حامد رادًّا على الفلاسفـة :

« قلنا : مـا ذكرتموه تحكُّمات ، وهي علـى التحقيق ظلمات فوق ظلمات ، لـو حكاه الانسان عن منام رآه ، لاستدلّ بـه على سوء مزاجـه ، او اورد جنسـه في الفقهيات ، التي تصارى الطلب فيهـا تخمينات ، لقيل : إنهـا ترّهات ، لا تفيـد غلبة الظنون » .

فهي على حـدّ تعبير ابي حامد ، تحكّمـات ... وظلمـات ... وترّهات ... الـخ . وعندما يناقشه ابن رشد ، يقابله انفعالا بانفعال ، وانتقاصـا بانتقـاص .

يقول ابن رشـد في الرد على الغزالي،بعد ان اورد مـا حكاه سابقا : « قلـت : « لا يبعد ان يعرض مثل هـذا للجهال مع العلماء ، والجمهور مـع الخوامّ ، كما يعرف ذلك لهـم في المصنوعات ؛ فان الصُنّاع ، اذا اوردوا صفـات كثيرة من مصنوعاتهم على العوام،وتضمنوا الأفعال العجيبة عنهـا ، هزىء بهم الجمهور ، وظنوا انهـم مبرسمون ، وهـم في الحقيقة الذين ينزلون منزلة المبرسمين مـن العقلاء ، والجهال من العلماء . وامثال هـذه الأقاويل لا ينبغي أن نتلقى بها آراء العلمـاء واهـل النظـر » (٨١) .

---

(٨٠) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٤٠٩ .

(٨١) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

وهكذا فنحن نستطيع أن نصنّف كتب ابن رشد هذه خارج دائرة الخاصة ، وانها موجهة الى العامة من القراء،وهي بذلك تخرج من ميدان البحث الفلسفي الرصين ، الى ميدان المساجلات الادبية واساليبها ... لقد كتب ابن رشد مؤلفاته هذه وقد وجهها الى العامة ، وفق مفهومه ، يريد اصلاح ما افسدته اقوال السابقين . فهو يحاول اصلاح ما افسده سابقوه بالتصريح بآراء مُفسِدة ، وتاويل ضالة ، تلقفها غير اهلها ، فعمّ بذلك ضررها ... (٨١) .

وفي هذه المساجلة الفكرية ، يقول العقاد : « فلم يحفظ لنا تاريخ الفكر مساجلة بين حكيمين في قوة المساجلة التي دارت بين ابن رشد والغزالي ، ومضاء سلاحها،ونفاذ حججها وبراهينها ... » (٨٢) .

ولم يكن ابن رشد في شروحه المشهورة وفي تصانيفه ، العلمية منها والفقهية والادبية ، سوى مفكّر عظيم يُوجِّهُ جميع طاقاته وجهة انسانية رفيعة ، هَدَفُها الأسمى تنمية الفضائل لدى افراد الامة ، وخلقُ مجتمع اسلامي قويم .

ونحن نلمس هذه النزعة الواقعية في مختلف مصنفاته،الى جانب تلك النزعة الانسانية السامية .

ونحن،اذا استثنينا بعض الاشارات المقتضبة الى قضايا اخلاقية وسياسية ، نلمحها في بعض مؤلفاته ، كتهافت التهافت ، والكشف عن مناهج الادلة،وسواها ؛ فقد اقتصر ابن رشد في تاليفه في الاخلاق والسياسة ، على شرح الاخلاق الى نيقوماخس ، وجوامع سياسة افلاطون ... (٨٤) . وقد فَصَّل ابن رشد في شروحه هذه ما فعله في شرح الخطابة والشعر . فهو لا يكتفي بشرح الجمهورية ، بل يعمد الى تطبيق بعض مبادئها على الاوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في البلاد الاسلامية آنذاك ، وخاصة الاندلس والمغرب .

---

(٨٢) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ١٠١ .
(٨٣) العقاد ، ص ٥٥ .
(٨٤) انظر : فخري ، ص ١١٨ .

فصلاح المجتمع وسعادته ، هو الهدف الأسمى ، الذي كان يرمي اليه ابن رشد في جميع مصنفاته ، العلمية منها والفلسفية واللغوية ؛ فقد ختم كتابه المشهور في ميدان الفقه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ، بقوله :

« وينبغي قبل هذا ان يُعْلَم ان السنن المشروعة العملية المقصود منها هو الفضائل النفسانية ، فمنها ما يرجع الى تعظيم من يجب تعظيمه ، وشكر من يجب شكره،و في هذا الجنس تدخل العبادات ... ومنها ما يرجع الى الفضيلة التي نسميها « عفّة » ... ومنها ما يرجع الى طلب العدل والكفّ عن الجور ... ومنها السنن الواردة في الأعراض ، ومنها السنن الواردة في جمع الأموال وتقويمها ، وهي التي يُقصَد بها طلب الفضيلة التي تسمَّى السخاء،وتجنُّب الرذيلة التي تسمى البخل ؛ والزكاة تدخل في هذا الباب من وجه، وتدخل في باب الاشتراك في الأموال ؛ وكذلك الأمر في الصدقات .

ومنها سنن واردة في الاجتماع الذي هو شرط في حياة الانسان وحفظ فضائله العلمية والعملية ... ومن السنن المهمّة في حيّز الاجتماع السنن الواردة في المحبّة والبغضة والتعاون على اقامة هذه السنن ؛ وهو الذي يسمَّى النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ... الخ .. » (٨٥) .

فمن الواضح ان ابن رشد يرى ان الدين يرمي بشعائره واوامره الى غايات انسانية واجتماعية رفيعة ، هَدَفُها صلاح المجتمع وسعادته . وكان لابن رشد ، من خلال ادبه،موقف واضح من اهم القضايا الاجتماعية والسياسية ؛ فقد كان له رأي واضح في السياسة، والاجتماع،والتربية،والمرأة،وحرية الانسان ؛ ففي مجال السياسة ، فان نظريته كانت مبنية على فلسفة أفلاطون ، وقد بسطها في شرحه « جمهورية » هذا الفيلسوف وجوهر تعاليمها ، انه يجب القاء

---

(٨٥) انظر : بداية المجتهد ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ .

زمام الأحكام الى الشيوخ والفلاسفة ليديروها بقسط وعدل . ويجب حث الناس على الفضائل بتعليمهم البيان والعلوم التي تثقف العقل (٨٦) .

ويتناول ابو الوليد ثلاث قضايا هي بمثابة المدخل الى علم السياسة ، وهي :

اولا ـ ما هي الشروط التي ينبغي ان تتوافر لكي توجد هذه الفضائل المشار اليها ... اذ ليس الغرض من هذا العلم معرفة ماهية هذه الفضائل ، كما يقول ارسطو ، بل العمل بها .

ثانيا ـ كيف يمكنُ غرسُ هذه الفضائل في نفوس الاحداث ، بحيث تنمو تدريجيًّا ، وكيف تصان بعد ان تبلغ مرتبة الكمال ؟ وكيف يمكن استئصالُ الشر من نفوس الاشرار .

ثالثا ـ ما هي الصفات والفضائل التي تشتدُّ اذا اقترنت بفضيلة ما ، وتضعف اذا اقترنت بفضيلة اخرى ؟ اي كيف تؤثر هذه الفضائل احداها في الأخرى (٨٧) .

وكان ابن رشد يكره الاستبداد العسكري والاقطاعات العسكرية ، ويرى استغناء الدولة عن القضاة والأطباء ، دليلا على انتظام شؤونها . ويقوم مُثُل الدولة الاعلى على عدم الاحتياج الى قاض ، ولا الى طبيب ؛ وليس على الجيش واجب غير السهر على حرس الأمة . وما يحدث لو اكلت كلاب الراعي غنمه ؟ وتُعَدُّ إقطاعات الجيش آفة الدول (٨٨) .

وقد رأى ابن رشد أن الحاكم الظالم هو ذلك الذي يحكم الشعب من أجل نفسه لا من اجل الشعب . وأنَّ شرَّ الظلم ظلم الكهنة ؛ وان أحوال العرب في عهد الخلفاء الراشدين كانت على غاية من الصلاح ، « فكأنما وصف افلاطون حكومتهم ، لما وصف في « جمهوريته » الحكومة الجمهورية الصحيحة التي يجب أن تكون مثالا لجميع الحكومات » .

---

(٨٦) انظر : رينان ، ص ١٧٠ ، مرحبا ، ص ٥٦ .

(٨٧) انظر : فخري ، ص ١٢٢ .

(٨٨) رينان ، ص ١٧٠ ، وهذا النص اورده عن طبيعيات ص ٢١ ـ PHILIKM

ولكنّ معاوية هدم ذلك البناء الجليل القديم ، واقام مكانه دولة بني امية وسلطانها الشديد ، ففتح بذلك بابا للفتن ما تزال الى الآن قائمة قاعدة حتى في بلادنا هذه (اي الاندلس) . » (٨٩) . أما موقفه من المرأة فهو يساوي بين المرأة والرجل من حيث الطبيعة فيقول : وتختلف النساء عن الرجال درجة لا طبيعة ، وهنّ اهل لكل ما يفعل الرجال من حرب وفلسفة . الخ ... ، ولكن على درجة دون درجتهم . وهنّ يفقنهم احيانا، كما في الموسيقى ، وذلك مع كون كمال هذه الصناعة يقوم على التلحين من قِبَل رجل والغناء من قِبَل امراة . ويدلّ مثال بعض الدول الافريقية على استعدادهن الكبير للحرب ؛ ولا بُعْدَ من الخوارق امكان انتهائهن الى الحكومة الجمهورية . اولا يرى ، كما هو الواقع ، ان اناث الكلاب تحرسُ القطيع كما تحرس ذكورها ؟ والى هذا اضاف ابن رشد قوله :

« لا تَدَعُنا حالتنا الاجتماعية نبصر كل ما يوجد من امكانيات في المرأة ؛ ويظهر انهن لم يخلقن لغير الولادة وارضاع الأولاد" .

وقد قضت هذه الحال من العبودية فيهن على قدرة القيام بجلائل الاعمال.ولذا فاننا لا نرى بيننا امراة مزيَّنة بفضائل خلقية . وتمرُّ حياتهن كما تمرُّ حياة النباتات ، وهن في كفالة ازواجهن انفسهم . ومن هنا ، ايضا ، اتى البؤس الذي يلتهم مدننا ؛ وذلك لأن عدد النساء فيها ضعف عدد الرجال ، ولا يستطعن كسب الحاجيّ معيلهن . » (٩٠) .

وتَطَرَّق ابن رشد الى حرية الانسان ، ووصل هذا المفهوم الانساني الرفيع بما ورد عنه في آي القرآن الكريم . فالانسان غير مطلق الحرية تماما ولا مقيَّدُها تماما . وذلك انه اذا نُظِر اليه

---

(٨٩) انظر : رينان ، ص ١٧١ .

(٩٠) رينان ، ص ١٧٠ — ١٧١ وقد نقل النصوص من « طبيعيات » ، ص ٢١ (PRIHERM) ، ص ٤٨ .

من جهة نفســـه وباطنه ، فهو حُـرٌّ مطلق لان نفسه مطلقة الحرية في جسمه . ولكن اذا نُظِر اليــه من جهة حوادث الحيــاة الخارجية ، كان مقيَّدا بها ، لمــا لها من التاثير على اعماله . « وهو يقــول : ان هذا هو السر في ان القــرآن يجعل الانسان تــارة مختارا وتارة مقيَّدا . » (٩١) .

ويسير ابن رشــد على منوال افلاطون في قضايــا التربية ، فيحذِّر في مجال تربيــة الصغار من التمثيل بالحكايات الكاذبــة « اي الاساطير » التي ترسخ في اذهانهــم فتُفسِد سريرتهم (٩٢) . وهو علــى مذهب افلاطون بالتربيــة الجماعية ، وحاجة الفــرد لاقرانه . فقد تبيَّن ان اكتساب المــرء لاي من هذه الفضائل دون معونــة الاقران مستحيل ، إذ ان الانســان يحتاج الى من عداه ، في اكتساب الفضيلة ؛ فهــو كائن مدنــي بالطبــع (٩٣) .

وفي حديثه عــن الخصال المكتسبة التي ينبغــي على الحاكم او الرئيس أن يتصف بهــا ، يرسم ابن رشد منهاجا تربويــا واضحا ، فيما يتعلق بالرئيس ، مــن الطفولة الأولى حتى يبلغ ســن الخمسين ، لانه على حَــدّ تعبيره يجب تفويض الحكومة الــى الشيوخ .

فبعد ان يتحدث عــن الطفولة الاولى للحاكم او الرئيس ، يقــول : ومنها ، اي مــن الخصال المكتسبة ، الاقبال علــى العلوم المتعلقة والتوفُّر على دراستها . وتبدا هذه الدراسة بعلــم الحساب ، فالهندسة ، فعلــم النجوم ، فالموسيقى ؛ وهي علــوم لا تُطلَب من اجــل الكمال الانساني ، شبيهــة الطبيعيات والالهيات ، بــل من اجل إعداد الفكر للاقبال على هذيــن العلمين ... وحين يبلغ الحكّام ســنّ السادسة عشرة او السابعــة عشرة ينبغي ان يُقبلوا على تعلــم الفروسية حتى ســن العشرين ، وعندها يأخذون بتعلــم الفلسفة حتى ســنّ الثلاثين . فاذا بلغوا الخامســة والثلاثين دُفِعت لهم رئاسة الجيش ، والتوال

---

(٩١) انظر : فــرح ، ص ٥٨ .
(٩٢) انظر : فخــري ، ص ١٢٤ .
(٩٣) فخــري ، ص ١٢٠ .

خمس عشرة سنـــة ؛ فاذا بلغوا سن الخمســين ، باتوا قادرين على الاضطلاع بمهـــام الرئاسة وادارة شؤون الدولـــة ...

امـــا التربيةُ الاخلاقيةُ لجميع المواطنـــين ، فهي تقوم،في نظر ابن رشـــد ، على تلقينهم الفضيلة بتعليمهـــم الخطابة والشعر والجدل . ولا شكَّ ان فيلسوفنـــا يقصد الانتقاء في مجـــال الخطابة والشعـــر والجدل ، فهـــي وسائل من اجـــل تربية الفضيلـــة في نفوس جميع المواطنين . ومن هنـــا نستطيع ان نفهم قولـــه عندما يُعقّب على ذلك قائلا : « والشعر مفســـد ، ولا سيما شعر العرب » (٩٤) . فـــان ابن رشـــد لا ينال من قيمة الشعر الفنية ، ولـــم يهدف ان ينتقص من شعر العرب من حيث هـــو ، ولكنه يرى ان يختار المربـــي من هذه الاشعار ما يكفل بتلقين الفضيلـــة ، وتربيتها في نفـــوس المواطنين .

العلاقة بـــين الشكل والمحتـــوى :

يشغل الجدل ، بصورة عامـــة،مكانة مهمة من مؤلفات ابـــن رشد . وهو على حـــد تعبير رينان : « يدخل اليـــه من الرشاقة ما هو ممتع . ومما كان يقع احيانـــا ، ان يرتقي بحماسته العلمية ، وكَلَفِـــه بالفلسفة الى ذروة من الخلقية ، بليغة الـــى الغاية . ويسود الاسهاب شروحـــه، ولكن بـــلا جفاف . وتتجلى شخصية المؤلف فيمـــا يعرف ان يسوقه الى المواضع المهمة مـــن استطرادات وتأمـــلات ... » (٩٥) .

والحقيقة ان هـــذه الاشارات تُكوِّن اهـــم خصائص ابن رشد في اسلوب كتابته . امـــا جفاف اسلوبه فلا بـــد لنا ان نستذكر حقيقة مهمة ، حيث ان طبعات كتبـــه في الحقيقة لا تعرض في نصوصهـــا العربية سوى شرح قـــام على ترجمة عربية من ترجمة سريانية مـــن اصل يوناني . اما في نصوصها باللغـــات الاجنبية فهي تقوم على ترجمة لاتينية مـــن ترجمة عبرية . هذا مـــع العلم ان كثيرا من مصنفاته قـــد فُقِدَت اصولها العربيـــة .

---

(٩٤) انظر : رينـــان ، ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٩٥) رينـــان ، ص ٦٧ .

وان الدارس لادب ابـــن رشد ومصنّفاته يمكن ان يلمس ركائز يمكن ان تُميِّز نظـــرة ابن رشد في اسلوبه، من ناحية، وفي فـن الكتابة من ناحية اخرى . فهنالـــك طبيعة الجمهور الذي يكتب اليـــه الكاتب ؛ وعند النظرة رايناهـــا واضحة تماما في ابحاثنا السابقة ؛ فهـــو ينادي بان على الكاتب ان يكون علـــى بصيرة من نوعيـــة الجمهور الذي يكتب اليـــه ، وبالتالي بنوعية الأفكـــار وطبيعة الابحاث التي يقدمها الـــى قرائه ، والا وقع في خطيئة كبـــيرة، وأدّى جهده الى الافســـاد . « فليس كل صنف من اصناف النـــاس ينبغي ان يُستَعْمَل معهـــم البرهان ، في الأشياء النظرية التي يراد منهـــم اعتقادها . وذلك إمّـــا لان الانسان قد نشا على مشهورات تخالف الحـــقَّ ، فاذا سلك بـــه نحو الاشياء التي نشا عليها ، سَهُل اقناعـــه ، وإمّا لان نظرته ليست مُعَدَّة لقبول البرهان اصلا ، وإمّـــا لانه لا يمكن بيانه لـــه في ذلك الزمان اليسير الذي يراد منـــه وقوع التصديق فيـــه ... » (٩٦) .

فهو في ذلك يقـــول بوجود علاقة وثيقة بـــين طبيعة الجمهور وحقائق المعرفة التـــي يمكن ان تُعْرَض عليهم . هـــذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، يجعـــل للانفعالات النفســـية دورا مهمّا نحو استمالة الحكام والناظرين ، حيـــث يقول : ... الاشياء المعينـــة في وقوع التصديق ، مثـــل التكلم في الخوف والرحمـــة والغضب، وما اشبه ذلك من الانفعالات النفسانية التـــي ليست مُعَدَّة نحو الامـــر المقصود تبيينه أولا وبالذات ، وانمـــا هي مُعَدَّة نحو استمالة الحكـــام والناظرين ، ولذلك كانت كانهـــا مُوَطِّئَة للتصديق لا فاعلة لـــه ... (٩٧) .

ويجعل ابن رشـــد للألفاظ مكانتها في زيـــادة التصديق ؛ وإن هذه المكانة تختلـــف باختلاف طبيعة المعارف ، وذلك على حـــد تعبير ابن رشد، لان للألفاظ في ذلـــك معونة في زيادة التصديق الحاصـــل عن

---

(٩٦) تلخيص الخطابـــة ، ص ١١ .

(٩٧) تلخيص الخطابـــة ، ص ٥ .

البرهان وقوته ، كالحال في الصنائع الاخرى ، فانها يلفى لهـا معونة في ايقاع التصديق المستعمل فيهـا وان كانت في ذلك تختلف .

فأقلّها حاجةً في ذلك صناعة الجدل ، ثم من بعدها صناعة السفسطة ، ثم من بعدها الخطابة ، ثم من بعدها صناعة الشعر . فهاتان الصناعتان اكثر حاجةً الى ذلك ...

وانما صارت الالفاظ والاصوات تفعل في هاتين الصناعتين هذا الفعل من اجل انها تخيل في المعنى رفعة او خسة ، وبالجملة امرا زائدا على مفهوم اللفظ ، مثل غرابة اللفظ ، فانها تخيل غرابة المعنى ، ولذلك فخامته تخيل فخامة المعنى . والنغم كذلك يفيد فيه هذا المعنى ... وليس يُقْصد ذلك احد عندما يتكلم على طريق الهندسة ولا على طريق العدد (٩٨) .

فقد ادرك ابن رشد العلاقة الوثيقة بين الشكل والمحتوى ، وقد اقترب في مفهوم ذلك الى المدى الذي لا يرى منه الشكل منفصلا عن المحتوى ، بل ان الصورة مرتبطة ارتباطا عفويا مع المادة . فابن رشد يرى مع ارسطو ان الكون هو تغير في الجوهر ، وانه لا يتكوّن شيء من لا شيء ، بل من موضوع . وهذا على حدّ تعبير ابن رشد في تفسير ما بعد الطبيعة حيث يقول : «... المذهب الذي اخذناه عن ارسطو ، وهو ان الفاعل انما يفعل المركب من المادة والصورة ، وذلك بأن يحرك المادة ويغيرها حتى يخرج ما فيها من القوة الى الفعل ... » .

ان هذه النظرة الفلسفية للعلاقة بين المادة والصورة قد انعكست تماما في موقف ابن رشد من الأدب بصورة عامة ، حيث يرى المادة متصلة اتصالا عفويا بالشكل،وليست منفصلة عنه . وهي النظرة التي يأخذ بها النقد الأدبي في مناهجه الحديثة .

---

(٩٨) تلخيص الخطابة ، ص ٢٥٣ .

وربما كانت هـذه النظرة الى العلاقة بـين الشكل والمحتوى ، بين المـادة والصورة ، وتطبيقها علـى الادب ، وفق مفهومه العملاني لـه ، اهمُّ قضيّتين يمكن ان يطرحهما الدارس لادب ابـن رشد . اما القضية الاخرى ، فقـد اشرنا اليها فيما سبق وهـي ارتباط الادب بالحقيقـة والمعرفة ، في نظـر ابن رشد ...

ابن رشد في مجـال اللغة والبلاغة والنحـو :

كان للُّغة اثـر كبير في تحديد فكر ابن رشـد ، وتاويع نظريات ارسطو وفلسفته الى واقـع الحضارة العربية الاسلامية بمقاييسها وعقيدتها ، بـل الى لغتها وادبهـا .

فقد اعتذر ابن رشـد عن ذكر الامثلة اليونانية لانه راعـى مجهولة تماما لدى القارىء العربـي الذي يتوجّه اليه ، ولا تتـلاءم ايضا مع الجـوّ الاسلامي الذي يكتب لـه ويعيش فيه ؛ على انـه استبدل بهذه الامثلة اليونانية نظائرهـا في الاسلام ، فاستشهد بشواهد من الفقه والتاريخ الاسلامي واللغـة العربية ... حيث اراد ان يطبّق القواعد والنماذج التي يذكرها ارسطو على اللغة والادب والخطب العربية .. (٩٩).

وكان ابن رشـد يقول منذ البداية ، بأن الشريعـة الاسلامية تحضُّ من خلال الآيـات القرآنية والحديث على النظـر الفلسفي . وهـي توجب استعمال البرهـان المنطقي ، على حـد تعبيره ، لمعرفة اللـه تعالى وموجوداته . ويستشهد على ذلـك بآيات من القرآن الكريم ، فيورد مثلا الآية الكريمة : « فاعتبروا يـا اولي الابصار » (١٠٠) . ويبيّن ان الاعتبار هنـا ليس الا استنباط المجهـول من المعلوم ، وهو القياس الفلسفي او المنطقـي المعروف (١٠١) .

وبنـاء على هذا الاتجاه ، فقـد استخدم ابن رشد امثلة عربية واسلامية كثيرة في كتـاب « تلخيص الخطابة » وفي كتـاب « الشعر »

---

(٩٩) انظر : مقدمـة تلخيص الخطابـة ، ص ي .
(١٠٠) سـورة الحشر ٢/٥٩ .
(١٠١) انظر : بين الديـن والفلسفة ، ص ٩١ .

ايضا . وبالرغم من انهـا شروح لكتب ارسطو ، غير ان ابـن رشد في التلخيص او التحليل يتكلّم باسمه الخاص دائما ، فيعرض مذهب الفيلسوف مضيفا ، حاذفـا ، باحثا في الرسائل الاخرى ما تكمل بـه الفكرة متّخذًا ترتيبـا ومنهاجا من اختياره ؛ وهكذا على حـدّ تعبير الفيلسوف الفرنسي « رينـان » : « فان التخليصات رسـائل حقيقية كرسائل ارسطو » (١٠٢) . ففـي حديثه مثلا عن الامور المستعملة مـع الاقاط على جهـة المعونة في جودة التقسيم وايقاع التصديـق وبلوغ الغرض المقصود ، وهي على حـدّ تعبير ابن رشـد نفسه ، التي جرت عادة القدماء ان يُسَمُّوها الآخـذ بالوجوه . فيقول : « وذلـك ان هذه الاشياء ، لمـا كان من شانها ان تميل السامعين الـى الاصغاء والاستماع والاقبال على المتكلم بالوجـه ، وتفريغ النفس لمـا يورده ، أُستُعير لها هذا الاسم . وهذه الاشياء صنفان : إمّا اشكال ، وإمّا اصوات ونغم ...

والاشكال بالجملة ، يقصد بها احـد امرين : إمّا تفهيم المعنـى وتخييله الموقع للتصديـق ، كما روي عن النبي ، صلى اللـه عليه وسلم ، انـه قال في آخر خطبة : « بُعِثتُ انـا والساعة كهاتين » واشـار باصبعيـه يقرنهمـا ... (١٠٣) .

وتراه يخرج في شروح الـى دراسات مقارنـة ، فيتحدث عن موقع بعض النظرات البلاغيـة في اشعار الامم ، ويقارنها بما هـو في لغـة العرب وآدابها . فنرى ابن رشـد يتحدث في موضع آخر مـن « تلخيص الخطابة » فيقـول : « وفيها ايضا انهـا تُستَعمَل بضرب من الوزن في الكلام الخطبـي ... وهذا الضرب من النغـم ضروري في اوزان اشعار من سلـف من الامم ما عدا العرب ؛ فـان من سلف من الامم كانوا يزنون ابياتهـم بالنغم والوقفات ، والعـرب تزنها بالوقفات فقط . ومنها ايضـا ان تُستَعْمَل اشعارا في افتتاح القـول وختمه ومواضع الوقـف ... » (١٠٤) .

---

(١٠٢) رينـان ، ص ٧٤ .

(١٠٣) انظر : تلخيص الخطابـة ، ص ٢٥٠ .

(١٠٤) تلخيص الخطابـة ، ص ٢٥١ .

وقد نَظَر الى البلاغة بهذه النظرة المبدعة ، حيث استطاع ان يتمثّل نظريات ارسطو من خلال نثر اللغة العربية وشعرها ... ويستخدم،بطبيعة الحال ، الاصطلاحات البلاغية التي سبقه اليها البلاغيون الأعلام قبله، اذ يقول مثلا : « والاستعارة التي تكون من هذا النوع كثيرة موجودة في اشعار العرب وخطبها ، والأقاويل التي يخصّها اهل لساننا من الناظرين في الشعر والبلاغة بالاستعارة هي داخلة في هذا الجنس ، ولذلك يقولون : إن المجاز استعارة وتشبيه » (١٠٥) .

وكان لابن رشد مجال واسع في التعريب ، وكيفية استخدام الالفاظ للدلالة على معان مستجدَّة ؛ وكذلك توليد الكلمات عن طريق الاشتقاق وغيره . فقد ذَكَرَتْ لنا المصادر المختلفة بين قائمة كتبه ، كلاما له على الكلمة والاسم المشتق (١٠٦) .

ففي حديثه عن تأثير الالفاظ والاصوات في الاقاويل يقول : « والذين وقعوا اولا على تأثير هذه الاحوال من الالفاظ والاصوات في الأقاويل هم الشعراء ، وذلك ان هذا المعنى اظهر ما يكون في الاقاويل الشعرية ، مع ان الوقوف على الأقاويل الشعرية هو متقدم بالزمان على الأقاويل البلاغية ... » (١٠٧) .

ويُعَمِّق نظرته في استعمال الالفاظ في لغات مختلفة ، فيقول : « واما اللغات فهي صنفان،احدهما ... مثل ان يستعمل العجازي لغة حِمْيَريّة ؛ والصنف الثاني ان يستعمل في مخاطبة امة ما ، الفاظا ليس من الفاظ اهل لسانهم ، وانما هو من لسان امة اخرى ، مثل ما يوجد في لسان العرب الفاظ كثيرة من الفاظ الفرس والأمم المجاورة لها . وهذا يُستَعمل على وجهين : احدهما ان يأتي بذلك اللفظ بعينه من غير ان يغيِّر بنيته وتركيبه : والوجه الثاني ان يُغَيِّره تغييرا يقرب

---

(١٠٥) تلخيص الخطابة ، ص ٢٩٤ .

(١٠٦) انظر : القائمة التي اوردها رينان ، ص ٤٥٦ ــ ٤٥٧ . وراق مشاوله الاسكوريال .

(١٠٧) تلخيص الخطابة ، ص ٢٥٣ ــ ٢٥٤ .

من الأبنية المستعملة في لسانهم ليسهل بذلك عليهم النطق به،مثل : السِّجِّيل وغير ذلك مما هو موجود في كتب اللغة (١٠٨) .

فابن رشد يقف هنا موقفاً واضحاً ومتميزا ، تجاه قضية التعريب ، سواء اكان ذلك بإحياء الفاظ ميتة ، مثل استعمال الحجازي الفاظا حميرية ، أم استعمال اللفظة الأجنبية ، كما هي ، وادخالها الى العربية،من ناحية،او ادخالها بعد اضفاء رونق العربية عليها ... وقد أورد لفظة « السجّيل » وهي لفظة قرآنية ... وهنالك ايضا الفاظ موضوعة ، يحدّدها ابن رشد من خلال شرحه فيقول : « وهي الألفاظ المخترَعة في لسان جنس ما ، يُخترِعها اهل ذلك اللسان ، على نحو التركيب الذي لحروفهم » (١٠٩) . ويبحث « تلخيص الخطابة » اللفظة من حيثُ اصوات الحروف وتناسقها او عدمه . وهنا ايضا ، تمتزج آراء ارسطو بآراء شارحه ابن رشد ، الى الحد الذي تُرى فيه شخصية الشارح واضحة بارزة ، وذلك من خلال تقصّياته وإيراده الأمثلة في نطاق العربية وحروفها واصواتها،اذ يقول :

« وأما المغلّطة فهي الألفاظ التي يعسر النطق بها ، وذلك يعرض لأسباب : منها أن تكون تلك الحروف حروفا يُعْسُر النطق بها ، وإن كانت قليلة ؛ ومنها أن يكون سبب العسر فيها كثرة الحروف التي رُكّبت منها ، والتي يعسر النطق بها ، إمّا أن يكون من أجل مخرج الحرف نفسه وأن ينطق به وحده ، مثل كثير من حروف الحلق ، وإمّا أن يكون العسر يحدث له عند تركيبه مع غيره ؛ وذلك إمّا لتقارب مخارجها ، وهذا هو سبب الادغام في لسان العرب ، وإما لتكرارها ، مثل قولهم : « قصصت اظفاري » . ولذلك بعض العرب يبدلون احدى الصادين « ياء » في مثل هذا . وربما كان السبب في ذلك تضادّ المخارج . ولذلك قَلَّ في لسان العرب اسم يوجد على وزن

---

(١٠٨) تلخيص الخطابة ، ص ٢٥٧ .

(١٠٩) تلخيص الخطابة ، ص ٢٥٩ .

« فِعلى » الا مـــا حكوا من « الدِفلى » . واكثر الانقلابـــات والمشاكل التي يشكو منها النحاة هـــذا هو سببها (١١٠) .

وهنـــا نستبين خصائص نظرة ابن رشـــد في النحو ، وقد كانت لـــه مساهمة فيه . ولا عجب من ذلك ، فالنحو عنـــد اهل الاندلس ، على حـــد تعبير المقّري « في نهاية من علـــوّ الطبقة ، حتى انهم في هذا العصر فيـــه كأصحاب عصر الخليـــل وسيبويه ، لا يزداد مع مرور الزمان الا جِدَّة ؛ وهـــم كثيرو البحث فيه ، وجُلّ مذاهبـــه كمذاهب الفقه . وكلُّ عالِمٍ في ايّ علـــم لا يكون متمكنا من علـــم النحو ، يعتبر لا تخفى عليـــه الدقائق ، فليس عندهم بمستحقّ للتميُّز ، ولا سالم من الازدراء ... » (١١١) .

ولـــم يخرج ابن رشـــد عن هـــذه القاعدة ، فقد اسهم في هـــذا المجال بكتاب سمـــاه « الضروريّ في النحو » (١١٢) . وان هذه التسمية ، تذكّرنا بكتاب أبي بكـــر الزبيدي الترطبي الذي وضعه قبـــل ذلك بحوالي قرنين من الزمـــن واطلق عليه « الواضـــح » .

ذكرت اكثر المصـــادر التي اوردت مصنّفات ابن رشـــد ، كتابه هذا في النحـــو ، ولكن مع الاسف لم يصل الينـــا ، ولا نعرف عنه شيئا ؛ فربما ما زال تائها فـــي بعض الاقبية او زوايا المكتبات ، وربما فُقِدَ الى الأبد كمـــا فُقِدَت مصنّفات كثيرة من هـــذا التراث الضخم ، نتيجة النكبات والحروب ومـــا حلَّ بالاندلس مـــن استئصال لجذور حضارة عربية اسلامية اصيلـــة . وإنَّ التسمية بحـــدّ ذاتها « الضروري في النحو » توحي لنـــا باتجاهه العملي ، في استخـــدام ما هو ضروري من قواعد النحـــو ؛ وهذا الاتجاه ينسجم تماما مع طبيعة فلسفـــة ابن رشد العقلانية والواقعيـــة ... وهو في ذلك استمرار لهـــذه المدرسة

---

(١١٠) تلخيص الخطابـــة ، ص ٢٥٨ .

(١١١) انظر : النفـــح ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(١١٢) انظر : قائمة كتـــب ابن رشد التي اوردهـــا ريشان ، ص ٥٦ ـــ ٥٧ ، ضمن مخطـــوط اسكوريـــال .

القرطبية ، التي اتّجهت اتّجاها عمليا مناهضةً لتعقيدات النحاة ، وانشغالهم بجزئيات لا فائدة منها .

وجملة القول، فقد كانت لابن رشد جهود طيّبة في مجال البلاغة والنقد ، وفي مجال النحو والاشتقاق، والترجمة والتعريب والشرح ؛ وان هذه المجالات لتستحقّ الدراسة المتعمقة في مصنفات هذا الفيلسوف الاسلامي، الذي كان على حد تعبير ابن الأبار : « كان يُفْزَع الى فتواه في الطب كما يُفْزَع الى فتواه في الفقه، مع الحظ الوافر من الاعراب والآداب » ...

خاتمة

ربما كان ابن رشد من المفكّرين القلائل في الدنيا ، الذين اهملتهم أمّتهم وعُنِيت بهم أمم أخرى ؛ لقد تجاوزت مصنفات ابن رشد حدود الزمان والمكان ، وكانت ركيزة اساسية في النهضة الأوروبية فيما بعد .

عَرَفَت اوروبا القرون الوسطى ابن رشد باسم (Averroes) وطارت شهرته لديها بالطبّ، من ناحية، وبالفلسفة من ناحية اخرى . وربما كان من الطبيعي ان لا يُعْنَى الفرنج بالجوانب الأخرى في فكر ابن رشد ، في مجال الفقه واللغة والأدب . وقد بقيت جميع هذه الجوانب ، مع الأسف، في زوايا الاهمال والنسيان ... ولا شكّ ان العصور المظلمة التي توالت على الأمة العربية والاسلامية ، كانت تقف وراء هذا الاهمال .

لم يكن ابن رشد فيلسوفا وطبيبا فحسب ، بل كان فقيها مجتهدا ، كما ينمّ عليه كتابه « بداية المجتهد » ؛ كما كان اديبا كاتبا، يعالج اهم القضايا السياسية والاجتماعية والأخلاقية التي تَمَسُّ كيان امته . وقد سار على درب صديقه « ابن طُفيل » وكثير من الفلاسفة المسلمين الذين سبقوه ، في محاولة التوفيق بين الحكمة والشريعة ، وبين ما يصل اليه من طريق الوحي والرسل ...

ولـــذا فنحن نستطيع ان نعتبر بحـــقٍ ما كتبه في « تهافت التهافت » وفي كتابه « فصل المقـــال » ... وكذلك في « كشف مناهج الأدلّـــة ... » وغيرها ، من الأدب السقلاني الرفيـــع الذي يحاول الكاتب فيـــه معالجة قضايا انسانيـــة واجتماعية واخلاقية وسياسيـــة ، يهدف من ورائها اصلاح ما فســـد في بنيان هذه الأمـــة .

ولم يقف ابن رشـــد عند هذه الحدود من الأدب ، بـــل تَعدّاها الى قول الشعر ، والإسهـــام في البحوث اللغوية والبلاغية،ولا سيمـــا في مجال النحو والتعريـــب والاشتقاق والنقد ... الـــخ ... وإنّ شروحه لمصنّفات أرسطـــو لم تكن لتقعد بـــه عند حد النقل ، بل كانت تتعداه الى حـــد الابداع في فهم فكر « المعلم الأول » وتَمثّلـــه ، وتطبيقه على بيئته العربية الاســـلامية،ولا ادل على ذلـــك من تعقيبه في خاتمة كتـــابه « تلخيص الخطابـــة » بقولـــه : « وهنا انقضت معاني هـــذه المقالة الثالثـــة ، وقد لخّصنا منها مـــا تادى الينا فهمه،وغلب على ظنّنا انـــه مقصـــوده ... » (١١٣) .

---

(١١٣) انظر : تلخيص الخطابـــة ، ص ٣٣٢ .

المصـــادر والمراجـــع

ابـن الأبـــار : ابن الأبار القضاعي البلنســـي ، التكملة لكتـــاب الصلة ، ج ١ ــ ٢ ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦ م .

ابن ابي اصيبعة : موفق الديـــن ابو العباس أحمد بن القاسم بـــن خليفة بـــن يونس السعدي الخزرجـــي المعروف بابن ابـــي اصيبعة ، عيون الانباء في طبقـــات الأطباء ، بـــيروت ، ١٩٥٦ م .

ابـن الأثـــير : عـــز الدين ابو الحسن علي ابن ابـــي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحـــد الشيباني المعروف بابن الأثـــير ، الكامل في التاريخ ، ج ١ ــ ١٢ ، بـــيروت ، ١٣٨٦ هـ ــ ١٩٦٦ م .

ابـن بشكـــوال : ابـــو القاسم خلف بن عبـــد الملك ، الصلـــة ، مصـــــر ، ١٩٦٦ م .

ابن تغرى بردى : جمال الدين ابـــو المحاسن يوســـف تغرى بردى الأتابكي ، النجـــوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ ــ ١٢ ، القاهـــرة .

ابـــن رشـــد : ابـــو الوليد محمد بن احمـــد بن محمد بن أحمد بن رشـــد القرطبي ، بداية المجتهـــد ونهاية المقتصد ، ج ١ ــ ٢ ، القاهـــرة .

" " : ابـــو الوليد ابن رشد ، تلخيص الخطابـــة ، تحقيق عبـــد الرحمن بدوي ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

" " : ابـــو الوليد ابن رشـــد ، تلخيص السفسطـــة ، تحقيق محمـــد سليم سالم ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

ابن رشد : ابو الوليد محمد بن رشد ، تهافت التهافت ، ج ١ — ٢ ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

— — : ابو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد القرطبي ، رسائل ابن رشد ، حيدر اباد الدكن ، ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .

ابن سعيد : علي بن موسى ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ — ٢ ، مصر ، ١٩٦٤ م .

ابن طفيل : ابن طفيل الأندلسي ، حي بن يقظان (لابن سينا وابن طفيل والسهروردي) ، تحقيق احمد امين ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .

ابن العماد : ابو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ج ١ — ٨ ، مصر ، ١٣٥٠ هـ

الأنصاري : ابو عبد الله محمد الانصاري ، فهرست الرصّاع ، تونس ، ١٩٦٧ م .

الذهبي : الحافظ الذهبي ، العِبَر في خبر من غبر ، ج ١ — ٥ ، الكويت ، ١٩٦٣ م .

الضبي : احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة ، بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الأندلس ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

رينان : ارنست رينان ، ابن رشد ، والرشدية ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

زيدان : جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ١ — ٤ ، القاهرة .

الزركلي : خير الدين الزركلي ، الاعلام ، ج ١ — ١١ .

العقاد : عباس محمود العقاد ، ابن رشد ، القاهرة .

الغزالـــي : الامام الغزالـــي ، تهافت الفلاسفة ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

فـــرح : فـــرح انطون ، ابن رشد وفلسفته ، الاسكندرية ، ١٩٠٣ م .

فخـــري : ماجـــد فخري ، ابن رشـــد فيلسوف قرطبـــة ، بـــيروت ، ١٩٦٠ م .

المقّـــري : احمـــد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب مـــن غصن الاندلس الرطيـــب وذكر وزيرها لسان الدين بـــن الخطيب ، ج ١ — ١٠ ، بيروت ، ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٩ م

موســـى : محمـــد يوسف موسى ، بين الديـــن والفلسفة ، القاهـــرة .

النباهـــي : الشيخ ابو الحسن بن عبد اللـــه بن الحسن النباهي المالقـــي الأندلسي ، كتاب المرقبـــة العليا فيمـــن يستحـــق القضاء والفتيـــا ، بيروت .

— BROCKELMAN - Geschichte d. Arab. Literatur Ers. Sup. LEIDEN , 1937 .

— The Encyclopaedia of Islam , LEYDEN , 1927 .

— Encyclopaedia of Religion and Ethics , vol. I-VIII , NEW-YORK , 1962 .